﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾﴾ [مريم: 31]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لما قَبْلَها:

التكميل والبيان لما امتنّ الله به على عيسى عليه السلام

في الآية السّابقة نَطق عيسى عليه السلام أوَّلًا بإقراره بعبوديَّته لله تعالى؛ لأنَّه أوَّلُ المقامات، وللرَّدّ على مَن يزعم ربوبيّته، وذَكَرَ في هذه الآية الكريمة تكميله، ونفعَه لغيره، وتعليمَ النّاسِ أمورَ دينِهم، وأَمرَهم بالمعروف، ونَهْيَهم عنِ المُنكر، ودعوتَهم لمكارم الأخلاق؛ فما في الآية السّابقة مِنَ الأصول، وما في هذه مِن مُكمِّلاتِها.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مُبَارَكًا﴾: أصل البَرْك صدرُ البَعير، وإن استُعمِلَ في غيره يُقال له: بَركَة، وبَرَكَ البعير: ألقى بَركَه، واعتُبر منه معنى اللُّزوم والثَّبات، فقيل: ابْتَرَكوا في الحرب، أي: ثبتوا ولازموا مَوضِع الحرب، وسُمّي محبسُ الماءِ برْكَةً، والبَرَكَةُ: ثبوتُ الخَيْرِ الإلَهيِّ في الشَّيءِ، قال تعالى: ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: 96]؛ وسُمّي بذلك لثبوتِ الخَير فيه ثبوتَ الماءِ في البِرْكَة، فهي الخير واليُمن[1]، والمُبارَك: ما فيه ذلكَ الخير؛ ولمّا كان الخَير الإلهيّ يَصدرُ مِنْ حيثُ لا يُحسّ، وعلى وجْهٍ لا يُحصَى ولا يُحصر، قيل لكلِّ ما يشاهد منه زيادة غير محسوسة: هو مُبارَكٌ، وفيه بَرَكَة[2]، وهو اسْمُ مَفْعولٍ مِنْ بارَكَهُ، إذا جَعلهُ ذا بَرَكَةٍ، أَوْ مِنْ بارَكَ فيهِ، إذا جَعل البَرَكَةَ مَعَهُ، والمراد به في الآية: الَّذي تُقارِنُ البَرَكَةُ أَحْوالَهُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 99.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (برك).

في أَعمالِه ومُحاوَرَتِه[1]، فهو النّافعُ الهادي المُرشِدُ، الآمرُ بالمعروف والنّاهي عنِ المُنكر، والدّاعي إلى الحَقِّ والتَّنزيه[2].

❁ المَعْنى الإِجْماليُّ:

حكى اللّهُ سبحانه أنَّ عيسى ﷺ قال عن نفسه: وجعلني ذا بركاتٍ، كثيرَ الخَيراتِ، ومِن ذلك أن أكونَ نفّاعًا للخَلقِ، مُعَلِّمًا للخيرِ في أيِّ مكانٍ وزَمانٍ أكونُ فيه، وقد جعل هذه الصِّفاتِ كأنَّها حدثت له فِعلًا، وهي لم تحصل بعد، مِن قِبَل أنَّها لمّا كانت واقعة حتمًا نُزِّلَت منزلةَ ما قد حصل، وأمرني بالصَّلاة، إذ في إقامتها وإدامتها – على الوجه الَّذي سَنَّه الدّين – تطهيرُ النُّفوس مِنَ الأرجاس، ومنعٌ لها عنِ ارتكاب الفواحش ما ظهر منها وما بَطَنَ، وكذلك أمرني بالزَّكاةِ في مُدَّةِ حياتي[3].

بَـرَكـاتُ الـرُّسـلِ والأنبياء باعتبارِ نَفعِهم للخَلقِ بدُعـائِـهـم إلى طـاعــةِ الـلـه وتوحيده

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة العطف في ﴿وَجَعَلَنِي﴾ و﴿وَأَوْصَنِي﴾:

في العطف بالواو في ﴿وَجَعَلَنِي﴾، ﴿وَأَوْصَنِي﴾ تعديدٌ لما أنطق اللّهُ تعالى به عيسى ﷺ، ودَلَّ العَطف بالواو على جَمع عيسى ﷺ بين ما فيه كمالُ نَفْسِه، ونَفْعُه لغيره.

أنعم اللهُ على عـيــسى ﷺ بما فيه كمالُ نَفسِه، ونَفْعُه لغيره

دلالة التَّعبير بالماضي ﴿وَجَعَلَنِي﴾:

عَبَّرَ بالماضي ﴿وَجَعَلَنِي﴾ عَمّا سَيَقَع في المُسْتَقْبَل؛ تَنْزيلًا لتَحَقُّق الوُقوع مَنزِلَةَ الوقوع، وفي المضي حسمٌ وقطعٌ ليس في المضارع؛ وهو أبَرُّ بحال القوم.

تنزيلُ مُتَحَقّقِ الـوقـوعِ منزلةَ الواقع

دلالة التَّعبير بالمفعول به الأوّلِ ضميرَ تكلُّمٍ ﴿وَجَعَلَنِي﴾:

في التَّعبير بالمفعول به الأوّلِ ضميرَ تَكَلُّم ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا﴾ تأكيدٌ على نِسْبَة البَرَكَة إليه، والنَّصّ عليه هو دون غيره.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 99.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4634.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 15/ 531، والواحديّ، التّفسير الوجيز، ص: 680، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 16/ 48.

الغرض مِن تنكير ﴿مُبَارَكًا﴾:

البَرَكَةُ: الخَيْرُ واليُمنُ والنَّفْع، وتنكيرُ المفعول به الثّاني ﴿مُبَارَكًا﴾؛ للتَّفخيم؛ بقرينة كون الجَعْلِ مِنَ اللّه العظيم، بإسناده إلى ضمير اسم الجلالة؛ حيثُ جعل اللّهُ تعالى عيسى عليه السلام ذا بَرَكاتٍ، ومَنافِعَ في الدّينِ، والدُّعاءِ إلَيه، نَفّاعًا للنّاس، ومُعَلِّمًا لِلْخَيْر، وناصِرًا للمظلوم، ومُرْشِدًا للضّال، ومغيثًا للمَلهوف، وقد اكْتَنَزَ هذا الوصفُ ﴿مُبَارَكًا﴾ كُلَّ تلك المعاني[1].

الغرض مِنَ التَّعبير بالشَّرْط ﴿أَيْنَ مَا كُنتُ﴾:

عُـمـوم بَـرَكَـة عيسى عليه السلام

الغرض مِنَ التَّعبير بالشَّرْط: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ الدّلالةُ على عموم بَرَكَة عيسى عليه السلام لأيِّ مكان يَحِلُّ فيه، وأنَّ كُلَّ مَن جالسه أو التقى به نالته بَرَكَتُه، وسَعِد بمصاحبته حيثُ كان، كالغيث أَيْنما سَقَطَ نَفَعَ؛ فبحذف الجوابِ للإيجاز: صارت جملة الشّرط قيدًا لجملة: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا﴾؛ وهذا القيد يُؤكِّدُ العموم الذي في: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا﴾؛ لأنّ جَعْلَه مباركًا مؤسَّسٌ على كونه قد آتاه اللّهُ الكتابَ وجعله نبيًّا.

دلالة العطف بالواو، والتَّعبير بالماضي في ﴿وَأَوْصَىٰنِي﴾:

الإشـــارةُ إلى أهميَّة الموصَى به

في ﴿وَأَوْصَىٰنِي﴾ الوصايَة: الأمر المُؤَكَّد بعَمَلٍ مُسْتَقْبَلٍ، والمراد: قَدَّرَ وصيَّتي بالصَّلاةِ والزَّكاةِ، أيْ: أنْ يَأْمُرَني بهما أمرًا مُؤَكَّدًا مُسْتَمِرًّا، فاسْتِعْمالُ صيغَةِ المُضيِّ في ﴿وَأَوْصَىٰنِي﴾، مِثْلُ اسْتِعْمالِها في قَوْلِهِ: ﴿ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ﴾[2]، وفي العطف بالواو ﴿وَأَوْصَىٰنِي﴾ تعديد لإنعام اللّه على عيسى عليه السلام، والتَّعبير بالماضي فيه تأكيد على تلك الوصاية وتحقُّقها وثُبوتها، وهو يدلُّ على أهميَّة الموصَى به.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 16/ 99.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 16/ 99.

سِرُّ تكرارِ التَّعبير بالفعل (جَعل):

المسيح عليه السلام يُؤكِّد على بَشَريَّته، وعبوديته لله تعالى خالقه

مِنَ الملحوظ تكرُّرُ التَّعبيرِ بالفعل (جَعل) ثلاثَ مرّات في قوله في الآية السابقة: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا﴾ وهنا: ﴿وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ وفي الآية التالية: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾، وهو فعل مِن أفعال التَّحويل والصّيرورة، وهذا له دلالتُه في التَّأكيد على مُطْلَق خضوع عيسى عليه السلام، وانقياده، واستسلامه لأمر ربِّه؛ لأنَّه عَبْد، والعبد مِلْكٌ لسَيِّده[1]، وكُلُّ هذا حُجَّةٌ على مَن بالغ في إطراء عيسى عليه السلام؛ لأنَّه لا شُبْهَة في أنَّ مَن يُؤْمر بالصَّلاة للإله ليس بإلهٍ، وأنَّ مَن يكون خاضعًا وعَبْدًا للإله ليس بإله، وفي التَّعبير بهذه الأفعال دلالةٌ على أنَّ العبد مخلوقٌ لله تعالى.

سِرُّ تقييد الفعل بشِبْه الجملة، وما عُطِف عليها:

فَضْلُ الصَّلاة والزَّكاة في كُلِّ الأديان السَّماويَّة

تقييد الفعل بشِبْه الجملة، وما عُطِف عليها في قوله: ﴿بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾ يدلُّ - كما سبق الإشارة إليه - على أهمّيّة هاتَين العبادتين في كُلِّ الأديان السَّماويَّة، وفضلِهما بتخصيصهما بالوصاية دون سائر العبادات، وقد "أوصاه الله تعالى ﴿بِٱلصَّلَوٰةِ﴾، ويُكَنَّى بها عن إصلاح نفسه، وتطهيرها والتَّقريب مِنَ الله تعالى، وأن يكون ربانيًّا في ذات نفسه، ﴿وَٱلزَّكَوٰةِ﴾ إعطاء الفقير حَقّه، وتطهير المجتمع مِن آثام الفقر، فكان الإيصاءُ بالصَّلاة والزّكاة إصلاحًا للنَّفْس والمجتمع، فبالصَّلاة صلاحُ النَّفْس وتطهيرُها لتألفَ وتُؤْلَف، وبالزَّكاة يكون التَّعاون الاجتماعيّ بينَ الغَنّي والفقير"[2].

نُكْتَةُ تقديمِ الإيصاء بالصّلاة على الإيصاء بالزَّكاة:

مكانة الصَّلاة راسخة في كُلِّ الأديان السَّماويَّة

والنُّكْتَةُ في تقديم الإيصاء بالصَّلاة على الإيصاء بالزَّكاة في قوله: ﴿وَأَوْصَنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾، أنَّ الصَّلاة عمود أيِّ دين، وهي

(1) عادل الرّوينيّ، تأمّلات في سورة مريم، ص: 160 - 161.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 9/ 4635.

صِلَة روحيَّة بينَ العبد وربِّه، وهي مِن أعظم حقوق الله؛ لذا قُدِّمت على الزَّكاة التي هي مِن حقوق العِباد، والتَّي تسقط عن غير القادر، بخلاف الصَّلاة فإنَّها لا تكاد تسقط حتَّى في ساحات الجِهاد، ثمّ إنّ الصّلاة مِن شأنها أن تُعين العبدَ على أداء باقي الفروض والنّوافل والآداب؛ فهي - بعد الشّهادتين - كالأُمِّ لغيرها مِنَ الأعمال والأقوال والنّوايا.

معنى ﴿مَا﴾ في ﴿مَا دُمْتُ﴾ ودلالتُها:

الصَّلاة معراجُ المؤمن

قولُه: ﴿مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ قيد للوصاية بالصّلاة والزّكاة؛ كما قُيِّد جعلُه مباركا بـ: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُ﴾، و﴿مَا﴾ في قوله: ﴿مَا دُمْتُ﴾ مصدريَّةٌ ظرفيَّة، والتَّقدير: (أمرني بها مدَّةَ حياتي إذا أدركني التَّكليف)، وهذا التَّعبير ﴿مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ يدلُّ عَلى اسْتِغْراقِ تكليفه بالصَّلاة والزَّكاة مُدَّةَ حَيّاتِهِ، أي: أنْ يُصَلّيَ ويَتَصَدَّقَ في أوْقاتِ التَّمَكُّنِ مِن ذلك في حياته.

فإن قيل: كيف يُؤمَرُ بالصَّلاة والزَّكاة، مع أنَّه ما زال في المهد، والقَلَمُ مرفوعٌ عنِ الصَّغير؟ والجواب: أنَّ قوله: ﴿وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾ لا يدلُّ على أنَّه تعالى أوصاهُ بأدائهما في الحالِ، بل بعد البُلوغِ، فيكونُ المعنى على أنَّه تعالى أوصاني بأدائهما في وقْت وجوبهما عليَّ، وهو وقتُ البُلوغِ[1].

الغرض مِنَ التَّعبير بالقيد ﴿حَيًّا﴾:

العبادة مفروضة على المرء ما دام حيًّا

"الاِسْتِغْراقُ المُسْتَفاد مِن قَوْلِه: ﴿مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ اسْتِغْراقٌ عُرْفِيٌّ مُرادٌ به الكَثْرَةُ"[2]، وهذا القيدُ يُشعرُ بعظيم أَثَر الصّلاةِ والزّكاة في حياة الكُمَّلِ؛ حياةِ نفوسِهم وعقولِهم وقلوبِهم، وبهذه الوصاية وقيدها يرجع الكلامُ إلى أوّله؛ حيثُ الإخبارُ عن عبوديَّته لله تعالى:

(1) ابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 13/ 59.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 16/ 100.

﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ فاللهُ آتاه الكتابَ؛ لتأهُّلِه بالعبوديّة لذلك الإيتاء، ورقّاه في العبوديّة؛ فجعله نبيًّا، ثُمّ اتّسعت دائرةُ العبوديّة باتّساع دائرة بعض مظاهرها بقوله: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا﴾.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الأمرُ والوصيّةُ:

الأمر طَلبُ فِعْلِ شيءٍ على جِهَة الاستعلاء، والوَصيَّة نصيحة الغير بما يعمل به مقترنًا بوَعظٍ

أَمَرَ: الأَمرُ ضِدُّ النَّهْيِ، وهو طَلبُ فِعْلِ شيءٍ على جِهَة الاستعلاء، وله صيغٌ أصلها (افعل) وما في معناها، و**أَوْصَى**: يدُلُّ الأصلُ اللُّغويّ للكلمة على وصْلِ شَيْءٍ بشَيْءٍ[1]، والإيصاء: الأمر المُؤَكَّد الواجب الاتّباع، والوَصيَّة: التَّقَدم إلى الغير بما يعمل به مقترنًا بوَعظٍ، من قولهم: أرضٌ واصيَة، وهي المُتّصلةُ النّبات، والوَصيَّة مِنَ الله فرْضٌ، والوَصيُّ يُطْلَق على الموصي إلى الغير، وعلى الموصَى إليه؛ فهو فعيل بمعنى فاعلٍ تارةً، وبمعنى مفعولٍ أُخْرى[2].

والفرق بينَ الأمر والوَصيَّة: هو أنَّ الأمر قد يكون على جهة الاستعلاء وقد لا يكون، بخِلاف الوَصيَّة، كما أنَّ الوَصيَّة غالبًا ما تُستعمَل في مواطن النَّصيحة، أو الضَّعْف، أو الشِّدَّة بخِلاف الأمر.

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (وصى).
(2) السَّمين الحلبيّ، عُمدة الحُفّاظ: (وصي).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الحادي والثلاثون،
سورة مريمَ من الآية 13 إلى سورة طه الآية 35
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الحادي والثلاثون، سورة مريمَ من الآية 13 إلى سورة طه الآية 35
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 31 ، 808 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-73-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 31 : المجلد الحادي والثلاثون، سورة مريمَ من الآية 13 إلى سورة طه الآية 35.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-73-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9736546 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»